كلمة الأستاذ الدكتور مروان المحاسني
رئيس مجمع اللغة العربية

أيها الحفل الكريم:

حين ندعو إلى احتفال يقيمه مجمعنا تذكيراً باليوم العالمي للغة العربية، قد يتبادر إلى الأذهان أننا نتبادل التهاني بمناسبة وصول لغتنا العربية إلى مكانة تُحسد عليها، ولم تكن لِتَصلَ إليها لولا وجودُ ظروفٍ خاصةٍ فتحت لها طريقاً مُعبَّداً لم يكن مفتوحاً لها من قبل.

وعندئذٍ يمكن التساؤل عن مقوّمات هذه القفزة إلى مصافِّ اللغاتِ المقبولة لتبوؤ تلك المكانة المتميزة في المجالات الدولية؛ إذ إنها أصبحت اللغةَ السادسة المُعتمدة في الاجتماعات الدولية.

فهل عدد الناطقين باللغة العربية في عالمنا الحاضر قد تعاظم تعاظماً فجائياً، جعل الهيئات الدولية مضطرةً لقبولها، أم أن ما ينشره العرب بلغتهم في ميادين العلوم، أومساهماتهم الكبيرة في استكمال الحداثة قد ألزمت الهيئات الدولية بضمها إلى لغات أخرى لها مساهمات في تطوير العلوم؟

ليس لنا أن نقارن بين عدد الناطقين بالعربية، وأعداد الناطقين باللغات العالمية الأخرى لنجعل من ذلك عاملاً ضاغطاً يُلزم الهيئات الدولية،إذ إن استعمال العربيةِ محصور بتلك المجموعة من الدول الوارثة المباشرة للحضارة العربية الإسلامية، دون غيرها.

وكذلك فيما يتعلق بمساهمات العرب اليوم في المسار العلمي العالمي، فما زالت متواضعةً لا تتجاوز خُطاً خجولةً لا ينعكس منها على قيمة اللغة العربية ذلك التميّزُ الذي يوصلها إلى تلك المكانة.

بل أقول: إن اللغة العربية قد فرضت نفسها بكل جدارةٍ على هذا الموقع، لما تتميز به من عناصرَ حضاريةٍ، بذلتها طيلةَ قرون عديدة، حاملةً إلى الحضارات البادئة بالتشكّل في العالم الغربي بذورَ التفتّح العقلاني، مبرزةً ما قام به علماؤها من توضيحٍ تفصيلي للمفاهيم العلمية التجريبية، وهي تلك التي بنى عليها الغرب تدرّجَ علومه. وهذا ما جعل أسماء العلماء العرب تبقى متلألئة في الفكر الأوربي، الذي بقي يدرّس كتب ابن الهيثم والفارابي وابن النفيس والخوارزمي وابن حزم وابن سينا حتى القرن السادس عشر الميلادي في جامعاته. فقد اغترفوا عن طريق مراكز الترجمة في طليطلة حصيلةً ناضجة من علوم الأندلس، وانبروا إلى إلحاقها بما كان قد وصل إليهم من علوم الإغريق البدائية، إلا أن بعض الألفاظ العلمية العربية الواصفة للدقائق العلمية قد كانت معنّدةً على الترجمة، فبقيت عربيةً في عدد من النصوص العلمية الأوربية؛ فإذا نظرنا اليوم إلى أي خريطة فلكيةٍ فقد يُدهشنا أن نِسبةً عاليةً من أسماء النجوم قد بقي عربيًّا حتى يومنا هذا: فم الحوت famalhout، بيت الجوزاء betelgeuse، رِجل rigel، الطير altair، وغيرها كثير.

ولذا فإن عالم اليوم لا يستطيع أن يحشر اللغةَ العربية بين اللغات المحلية الخادمة لمصالح أهلها، ولا امتداد لها خارج أراضيها، فهي لغةٌ لها جميع مقوّمات العالمية حتى في عالمنا اليوم. ذلك أن اللغة العربية التي استقرت معصومةً في القرآن الكريم قد أصبحت لغةَ العبادة المُلزمة للملايين الذين وصلت إليهم الهداية، إلى جانب لغاتهم الأصلية. لكنها تجاوزت ذلك الالتزام

ودخلت في حياتهم اليومية، توضح لهم أموراً دقيقةً لم يجدوا لها تعبيراً كافياً في لغتهم. وقد بدأ ذلك في بلاد الشام حيث وجدت اللغات المحلية كالسُّريانية والآرامية مُفْترجاً للتعبير عن أمورٍ وصلت إليها مع الثقافة العربية. ولا شك أن التبادلات بين هاتين اللغتين واللغة العربية كانت مجالاً ثريًّا للاقتراض اللغوي في توصيف الكثير من المستجدات، مستفيدةً مما هو معروف من القربى المؤكّدة بين اللغات الثلاث. ثم إن هذا الانتشار المحلّي قد تجاوز حدود بلاد الشام ليَدخل اللغات المجاورة كالتركية والفارسية والكردية، ويستقرَّ في التعبير عن المشاعر والأحاسيس والفكر المجرّد.

فلا عجب إذا كنا اليوم نفهم أجزاءً كبيرةً من تلك اللغات المشرقية، وخاصة تلك التي احتفظت بالحرف العربي. وهذا مايجعلنا نقتطف من كل نصٍّ فارسي عدداً كبيراً من ألفاظ معبّرة عن المُجرّدات كالإحسان والفضيلة والمحبّة. وأما في التركية فمن السهل أن نذكر الانقلابيين على الدولة العثمانية، واسمهم جمعية الاتحاد والترقي، وقد اختزلوا برنامجهم في ألفاظ ثلاثة: حريّتْ عدالَتْ مُساواتْ. وهي من صميم العربية، إلا أنّهم انقلبوا على الحرف العربي، والتحقوا بالحرف اللاتيني.

وكذلك الألفاظ العربية موفورةٌ في لغات بعيدة عن بلاد الشام كلغة الإيغور في غرب الصين، والكازاك في سهوب آسيا، في لغة الباكستان (الأوردو)، وفي لغة الجيش التركي حيث صرخةُ الألم مازالت (أمان)!

أيها الحفل الكريم:

إذا كان برنامج ندوتنا يطرح التساؤلات عن دور المؤسسات الوطنية في خدمة اللغة العربية فقد يتبادر إلى أذهانكم تساؤلٌ عن دور مجمع اللغة العربية في هذا المضمار.

لا أريد الإطالة بما يأخذ من أوقات المتكلمين اليوم، ولكن لابد لي من القول: إنَّ مسؤوليات مجمعنا أوسع من أن يعبّر عنها بكلمات مختصرة.

لذلك أكتفي بالقول: إن تأسيس مجمع دمشق في العشرينيات من القرن الماضي كان منطلقاً للخلاص من تهميش قسريّ للغة العربية فرضه الحكم التركي. وكان أولَ ما التفت إليه المجمعيّون ضرورةُ إيجاد البدائل عن كلمات تركية تتناول أمور الحياة اليومية، فانبرى المجمعيون لإطلاق تسميات عربية تتضمن المعنى المقصود ولا تخرج عن المألوف.

فقد حلّت مثلاً لفظة الطلب أو الاستدعاء مَحلّ ما كان يسمى (العرضحال)، وحلّت الإضبارة أو الملف بدلاً من (الدوسيه)، واللجنة بدل (القومسيون)، والمفتش بدل (الكومساري)، والآذن بدل (الأوضجي)، والمضخّة بدل (الطرُمبة)، والشركة بدل (الكُبّانيّة)، والفندق بدل (البانسيون)، والرافِعة بدل (الكريكو)، إلى آخر ما كان هنالك من ألفاظ غريبة متداولة لا تحمل حروفُها أيَّ معنى يتبادر للأذهان قبل تفسيرها، وقد أحلّ المجمعيون محلّها ألفاظاً عربية واضحة الاشتقاق، لا يُخِلّ التلفّظ بها في جَرْس الألفاظ العربية الفصيحة، ولو كانت غيرَ مألوفة. وكان انتشارها بين العامة سريعاً بما سمحَ لهم ركوب السيّارة بدلاً من (الأتمبيل)، والذهاب إلى الزبداني بالقطار بدلاً من (الترين).

وهكذا انقضى القرن العشرون ولم نزل نسير على خطاهم في مسعانا لتخليص لغتنا من ألفاظ حداثية غازية يستسهل العامة استعمالها للتعبير عن أمور الحياة اليومية.

لكن المَهمّة الكبرى لمجمعنا اليوم هي تطوير اللغة العربية لتصبح حاملاً مميزاً لعلوم العصر، كيلا تغرق ثقافتنا في الأمواج المتضاربة للعولمة.

لـذا تجـدون فـي مجمعنـا لجنـةً لكـل مـن العلـوم الدقيقـة تسـتعرض مصطلحاته، وتعيد النظر في تطابقها مع التعريف العلمـي للمصـطلح، وهـي مصطلحات تصبح ملزمةً في التـدريس للعلـوم الدقيقـة كالفيزيـاء والكيميـاء بعد اعتمادها من قبل مجلس المجمع.

وهناك لجانٌ تفصيلية لألفاظ الحضارة في المجالات المختلفة، ولعلوم البيئة السريعة التطور، ولمصطلحات المعلوماتية والتقانات الحديثة، ولجنـةٌ خاصة بشؤون الإعلام.

ونحن نتعاون مع مراكز العلوم فـي دراسـة المصـطلحات الجديـدة فـي مجالات الإدارة والتصنيف والمقايسة.

وأما اللجان المختصة بعلوم اللغة العربية فهي تُعيـد النظـر فـي الألفـاظ والأساليب في سعي حثيث لإيقاف زحـف العاميـة إلـى الخطـاب الفصـيح، وهناك لجنة خاصة تهيئ معجماً لدلالات أبنية الألفاظ.

ومـازال مجمعنـا يفتخـر بأنـه قـد تمكَّـن منـذ تأسيسـه أن يـؤمّن جميـع المتطلبات التدريسية للجامعات الوطنية في جميع الفـروع العلميـة الدقيقـة، متمماً بذلك ما قدمه أساتذتنا المؤسسون للجامعة، كل منهم فـي تخصصـه، ونحن ندين لهم بتلـك المصـطلحات النيّـرة التـي بَنَينـا تعلّمنـا علـى فهمهـا وإيجاد الروابط بينها، ممَّا جعلنا نتبارى في تحديثها حين تولّينا التدريس.

لقد كان مجمعنا منذ إنشائه المستندَ الذي يعوَّل عليه في مهمة الخـروج من التبعية الفكرية التي حاول الانتداب الفرنسي فرضها على سورية.

فحين طرح الدكتور رضـا سـعيد مشـروعَه لإيجـاد معهـد طبـيّ يـدرّس جميع فروع الطب باللغة العربية تصدّى له المفـوض السـامي الفرنسـي بـأن وجود كلية فرنسية في بيروت يكفـي لسـدّ حاجـات الـبلاد، وأصـرّ علـى أن

تدريس الطب في الكلية التي يُقترح إنشاؤها لا يكون إلا باللغة الفرنسية.

وكان الفضل للرئيس محمد كرد علي بأن حَصَّل من الحاكم العسكري علي رضا باشا الركابي، وهو عربي، إصدارَ مرسومِ تأسيس الجامعة السورية، وفيها كليةٌ طبيةٌ تدرّس جميع فروع الطب باللغة العربية، إلى جانب كلية للحقوق لا يمكن أن يكون التدريس فيها إلا باللغة العربية.

ولا شك بأن التكامل بين المجمع العلمي العربي، وبين الجامعة السورية التي أسست بعده بسنة، وباشرت التدريس باللغة العربية لمجموع العلوم الأساسية، كان تكاملاً منتجاً، ليتمكّنَ الطلاب من متابعة الاطّلاع على الموضوعات الطبية الخاصة بتشخيص الأمراض ومعالجتها. وهو تعاون اعتمد مراجعة كتب الأطباء العرب، وبخاصة ابن سينا في الأمراض، والزهراوي الأندلسي في مصطلحات الجراحة والأدوات الجراحية، إضافة إلى ما كان من الكتب الفرنسية لديهم.

ولا بدّ من ذكر أسماء أولئك الذين تولَّوا هذه المهمة الصعبة التي أعادتهم إلى أعماق التعريفات المعجمية، وألزمتهم التدقيق في الطاقات الاشتقاقية العربية الفذّة التي تتيح لهم اقتراحَ المصطلحات المناسبة لكل علم. فقد كان على رأسهم أستاذي الكبير مرشد خاطر، وهو من المجمعيين الأوائل؛ إذ إنه أنشأ عام ١٩٢٣م مجلة المعهد الطبي الفصلية، وبقي يحررها منفرداً حتى آخر الخمسينيات من القرن الماضي. ومن جهة أخرى كلية الطب الحالية مَدينةٌ للأستاذ الكبير الدكتور أحمد حمدي الخياط الذي أخذ على عاتقه تحديد المصطلحات المطلوبة للجراثيم والطفيليات، وهي المستعملة في فرنسا بأسماء لاتينية وصفية، فقام بتحديد مفهوم أشكالها بأنها مكوّرات عقدية أو عنقودية، وعصيّات أو برّيميّات أو مثقبيات، وأعطى الطفيليات أسماء تصفها كما هي

موصوفة بالفرنسية. وأضاف الدكتور صلاح الكواكبي قوائمَ طويلةً من المصطلحات الكيماوية بتراكيبها المعقدة. وكان للأمير مصطفى الشهابي الفضلُ في تنسيق معجم نفيس للألفاظ الزراعية، مازال حتى اليوم مرجعاً يُعتدّ به عند مناقشة تطوير المصطلحات الزراعية. وكان للأستاذ الدكتور حسني سبح رحمه الله، وهو الرئيس الرابع لمجمعنا، باعٌ طويل في مجالات الطب الداخلي والأمراض العصبية، وهو الذي كان يرأس لجنتنا التي أسستها منظمة الصحة العالمية، وعملت ما يقرب من عشرين سنة، حتى صدر المعجم الطبي الموحد المعتمد اليوم في كل مجالات العلوم الطبية، وكان الدكتور هيثم الخياط عضواً معي في هذه اللجنة قبل أن يُنتخب كلٌ منَّا عضواً في المجمع.

وهذا ما يجعلنا في هذا الاحتفال بيوم اللغة العربية نتساءل: أَلا تستحق جامعتنا أن يُحَدَّد لها يوم احتفالي، وهي التي جعلت من اللغة العربية لغة علميةً دقيقة لا تعجز عن التعبير بمصطلحات علمية ثابتة عن مختلف الاحتياجات في الكتابة عن العلوم الطبية، وسهّلت وصول شبابنا إلى المستويات العلمية العالية التي تخدم مجتمعاتنا، وتفتح لها مجالات المشاركة في تطورات العلوم.

أيها السيدات والسادة:

لقد انطوى القرن العشرون بأفراحه وأتراحه، واستقرّت خلاله لغتنا العربية لغةً حضاريةً عصرية قادرةً على التعبير عن كل متطلبات الحياة الفكرية والحياة العملية، يعتمدها الكتّاب في دراساتهم ومناقشاتهم على أعلى المستويات.

ثم دخلنا فجأة في القرن الحادي والعشرين مطمئنين إلى متانة لغتنا العصرية المطواعة، التي اشتهرت بحسن تطابقها مع متطلبات الحداثة، وظننا أن التعليمَ الإلزامي سوف يقضي على ما للعامية من سيطرةٍ في بعض

الفئات الشعبية. وقد تمكّنا من إيجاد المقابلات المطلوبة لكل ما أتت به إلينا التقانات السريعة التطور، وأصبحنا قادرين على مرافقة تطور اللغات الأجنبية حين أعادت إخراج ألفاظها من الرتابة، لتُدخل إليها ما تتطلبه العلوم والتقانات لحسن التعبير بدقائق الألفاظ عن دقائق المعاني.

ومن الأمثلة على هذا التطور بروز تعديلات هامة في ألفاظ مستقرّة بقصد الإشارة إلى فروقٍ دقيقة فيها، وذلك دون الخروج عن منطلقها اللفظي الأصلي. فقد برز في اللغات الأوربية ميلٌ إلى الدقة في التوصيف لبعض الألفاظ الحاملة لمفهومات شاملةٍ لنقاطٍ عديدة. لذا مثلاً قد يكون مفهوم الحكم من أوضح الألفاظ، إذ إنه إضافة إلى مفهوم حَكَمَ gouverner, to govern ثمة اشتقاقات متعددة تتبعه: حُكْم وحاكَمَ وتحكّم والحكومة والمحاكمة، إلا أنه قد ظَهَر مفهومٌ جديد هو gouvernance، وهو وصف لتقييم طريقة إتقان الحُكْم في كونها عملية تدخل فيها عوامل عديدة؛ فكان على لغتنا أن تضع المقابل لهذا التوصيف دون الخروج عن الحروف الأساسية، فأصبحنا نتكلّم على الحَكامة أو الحَوكمة بما يلبي هذا الطلب، وهذا مثال واضح على طاقات لغتنا العربية فيما لديها من مجالات الاشتقاق.

وهناك مثال آخر حداثي هو ما يصف من تشابُهٍ أو تخيّل وتناغم بين نصّين مستقلّين، أطلق عليه intertextualite، وهو اليوم مفهوم التناصّ بما يتضمنه من بوادرَ في أعماقِ الإدراك في مجالات النقد الأدبي.

وقد أتيت بهذين المثالين لا ادعاءً بأنهما من إنتاج مجمعنا، بل تأكيداً لما تتصف به لغتنا من طراوةٍ اشتقاقية تبشّر بوجود طاقات قادرة على متابعة التجاوب مع الاحتياجات اللغوية العالمية.

إننا أمام ما نعرفه من انفتاح لغتنا على جميع المستجدات يؤلمنا اليوم أن

نواجه عند شبابنا تهميشاً طوعيًّا للغة العربية يظهر في مجالات التواصل الاجتماعي بينهم، نسمعهم يرطنون بألفاظ أجنبية يكتبونها بحروف عربية، وهم غالباً ما يجهلون دقائقَ معانيها إلى حدِّ أنهم يتبادلون الحديث بلغةٍ عرجاء لا يمكن أن ترقى إلى توضيح الأفكار. ولو بقي هذا محصوراً في فئة اليافعين من الشباب لكنّا نسبناه إلى رعونة غير مستحبّة، ولكننا نراه قد انتشر في فئات المتعلمين حملة الشهادات العليا، يزوّقون كلامهم بعكاكيزَ فرنسية أو إنكليزية تباهياً أو استعلاءً، أو تأكيداً لمشاربهم الثقافية الأجنبية. وقد انتشرت هذه الحوارات في عدد من الفضائيات تمسخ اللغة العربية إلى كلماتٍ وتصورات من لغات أجنبية يراد تلميعُها، ولكنها تبقى قاتمةً لا ضوء فيها لبُعدها عن الأفهام. إنه خطاب مضلِّل لمن لا تعني له تلك الألفاظ الدخيلة ما يمكن أن يربطه بمجالٍ واضح يعرفه. فحين نسمع من يكيل المديح لرفيقته عما وصلت إليه من (سمايل)[١] هوليودي، أو ما لها من (لوك)[٢] متميز اليوم، وأنه يدعوها لمرافقته إلى (إيفنت)[٣] متميز، ويخبرها بأنه قد أصبح (كوتش)[٤] في تعليم الإنكليزية، وأن تعلم الإنكليزية قد أصبح (ترند)[٥] يتغلّب على تعليم الفرنسية، عندئذ يحقّ لنا أن نثبت خروج هذا الخطاب من اللغة العربية.

إنه انزياح ثقافي يشير إلى انسحابٍ من الانتماء اللغوي الحضاري، يجعلنا نخشى على لغتنا من الانقراض إذا استمر هذا المسار، بل هو فصام حضاري يجعلنا نستبدل بلغتنا العريقة، المتربّعة على عرش تاريخنا المجيد

(١) ابتسامة.
(٢) إطلالة.
(٣) حدث ترفيهي.
(٤) مدرّب.
(٥) رائجاً.

تتناغم فيها الألفاظ مع أعمق أحاسيسنا، نستبدل بها لغةً دعيّةً لا أصالة لها، تطمس التعبير عن مشاعرنا في غُربةٍ تسطيحية تخرجنا من ذاتيتنا الثقافية.

أيها السيدات والسادة:

بعد أن حاولتُ في كلمتي أن أذكّركم بما تعرفونه عن مميزات لغتنا العربية، وعن الجواهر الفكرية التي زيّنت بها الحضارةَ العالمية، وعن المسار التحديثي الذي يسلكه مجمعنا، وعن الخدمات اللامتناهية التي مازالت جامعاتنا تقدّمه لتستقرّ لغتنا العظيمة في وجداننا فاتحةً لنا أبواب النفوذ إلى أعلى مستويات الحداثة، معتمدةً مافيها من دقةٍ وجماليات = خطرت لي أبيات المتنبي في وصف شِعب بوّان تلك الروضة الغنّاء يقول:

إذا غنّى الحمامُ الوُرق فيها أجابته أغانيُّ القيانِ
وأمواهٌ تَصِلُّ بها حصاها صليلَ الحَلْيِ في أيدي الغواني

وإذا به يختم قائلاً:

يقول بشِعب بوّان حصاني أعن هذا يسار إلى الطعان؟

وهو ما جعلني أتساءل: وأي طعان هذا الذي يُدخلنا في تقهقرٍ فكري تسهّله تقانات التواصل الاجتماعي السريعة، وتكرّسه صعوبات التطابق مع حاضر متأرجح القيم، يُبعد المرء عن حقائق وطنه، بعد أن تكالبت قوى الشر على عروبتنا؟.

إنه موقفٌ تَغلُب عليه تساؤلات عن وجود أدوارٍ نافذةِ المفعول يمكن لمجامع اللغة العربية أن تتولاها لتُساعد الأجيال الصاعدة على إعادة الانغماس في ثقافتهم الأثيلة مستبعدين الانجرارَ إلى تقليد أعمى لمجالاتٍ ثقافية لا تَمتّ بصلة إلى حقائقنا الذاتية.

فهل للمجامع قُدرةٌ على إتمام ذلك.. يا تُرى؟